

خواطر حول مفهوم العبودية



مصطفى البدرى

الخميس 2 فبراير 2017 01:02 م

في العام الخامس عشر الهجري كانت معركة القادسية بين المسلمين والفرس، ومما حدث قبل بدايتها أن دخل رُبَيْعِي بن عامر رضي الله عنه على رستم ملك الفرس، فسأله رستم: ما جاء بكم؟

فقال رباعي: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَن قَبِلَ مِنَّا ذلك قَبِلْنَا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نُفْضِي إلى موعود الله

قال رستم: وما موعود الله؟ قال رباعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي

تاريخ الرسل والملوك - ابن جرير الطبري

فلسفة العبودية في الإسلام قائمة أساساً على تحرير الإنسان من كل استعباد ليكون عبداً خالفاً لخالقه ومولاه، وقد ضرب الله مثلاً في سورة الزمر بين رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون وآخر بديلاً لرجل واحد، ليقرب فيه الصورة الذهنية للعبد الذي يخرج من عبادة الله ليصبح عبداً لآلهة شتى يتنازعه كل إله فيهم ليستأثر به لنفسه، فيصبح في النهاية مُفْرَقاً مُسْتَنَافاً لا يستطيع أن يقوم بحق أحد منهم، بخلاف الآخر الذي يقدر على استرضاء سيده دون مشقة أو عُتْ

حتى لا يظن إنسان أن وصف العبودية فيه شيء من المهانة أو الانتقاص لقدره، جعله الله عز وجل وصفاً لكل من أراد مدحهم والثناء عليهم في كتابه الكريم

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في حديث "تَعَسَّ عَيْدُ الدِّيَّارِ وَعَيْدُ الدَّرَّهَمِ" أن الإنسان الذي يحاول الانسلاخ من عبوديته لله عز وجل لابد وحتماً سيقع في عبودية أخرى لغيره من المخلوقات، فتتنازعه شهواته ولذاته ليصبح عبداً للمال تارة وعبداً للثياب والمظاهر تارة وعبداً للتملك والسيادة والسلطان تارة وعبداً للشهرة تارة وعبداً للأشياء التي ارتكز حبها أصلاً في الفطر كما أن الله زينها للنفوس، فينتقل من مجرد إنسان طبيعي يقاوم نفسه في التعلق بهذه الأشياء، ليصير أسيراً لها بشكل كامل حتى صحَّ أن يطلق عليه وصف العبد لها

لذلك لا تصدق دعاة الانحلال والفجور عندما يدَّعون ويزعمون أنهم دعاة حرية، لأنهم في الحقيقة دعاة انفلات وانسلاخ من العبودية التي يُكرِّم صاحبها في الدنيا والآخرة، إلى عبودية الشهوات واللذات التي تجعل الإنسان أشبه بالأنعام بل أضل

وثمة ملح آخر أشار إليه رُبَيْعِي في كلامه، وهو أن عامة الملوك والسادة إنما يرفضون الإسلام لأنه يحرق أتباعهم من عبادتهم لهم (حتى لو كانت لهم آلهة أخرى كالنار التي كان يعبدونها الفرس)، لأن دور الكهنة الحقيقي هو إقناع الجماهير بأن طاعة الأسياد طاعةً للآلهة، حيث إن الكهنة أساساً موظفون عند الأسياد، لذلك قال: لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله

ثم بين رُبَيْعِي أن مصير من سار في طريق العبودية لله يؤول إلى حالين: (النصر أو الشهادة)، فلا وجود في عقولهم لحياة الذل والمهانة، وحيث تمكن الله من قلوبهم رغبا ورهبا فلا تجدهم في صف الطواغيت المتجبرين، بل يتصدرون صفوف مواجهتهم ومقاومتهم، وهذا دأب كل من فهم رسالة رُبَيْعِي هذه، بخلاف من يرددونها كثيراً ثم تراهم في صف كل متكبر جبار!!

وحتى لا يظن إنسان أن وصف العبودية فيه شيء من المهانة أو الانتقاص لقدره، جعله الله عز وجل وصفاً لكل من أراد مدحهم والثناء

عليهم في كتابه الكريم، فقال عن الملائكة: "إِلَّٰهَ عِبَادٌ مُّكْرِبُونَ" وقال عن عيسى في مقام الرفعة والامتنان والرد على من عظموه فجعلوه إلهًا أو ابنا لله: "لَنْ يَشْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عِبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ" وقال عن محمد في حكاية الإسراء به وعروجه للسماء السابعة: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى" و "مَا أُوحِيَ إِلَيَّ إِلَّا مَا أَوْحَى" وفي مقام أداء أشرف الوظائف: "وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا" وقال عن المؤمنين الصالحين: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَفْسُحُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا" وبذلك يظهر أن وصف العبودية لله هو أشرف وسام يحصل عليه مخلوق □

وقد تكلم الناس كثيرا في تحرير معنى العبودية، وخلاصة كلامهم متضمن في قوله تعالى: "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَقَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" بحيث يحرص الإنسان على أن تكون (حركاته وسكناته - كلامه وصمته - يقظته ونومه) كل ذلك داخل إطار ما يرضي الله عز وجل □

ومن أعجب الأحاديث في ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر" □

حيث بيّن فيه النبي صلى الله عليه وسلم أن كل عمل يقوم به الإنسان من أمور الدنيا طالما كان منضبطا بضوابط الشرع فهو داخل إطار العبودية، فالرجل يعمل ليتكسب ويعف نفسه وأهله عن السؤال، وينام وهو ينوي الاستيقاظ لصلاة الفجر، ويبيع ويشترى فيما أباح الله، ويتزوج النساء ويعاشرهن بالمعروف، كل ذلك عبادة وقربة شريطة ألا تشغله عن العبادات الأصلية كالصلاة والزكاة والصيام والحج والبر والصلة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك من صور العبادة المعروفة □

وقد يكون الأدمى عبادة في وقت وعكسه عبادة في وقت آخر، فالصيام في نهار رمضان عبادة كما أن الإفطار والسحور في ليله عبادة أيضا، والصلاة في الجملة من أعظم العبادات لكنها معنوعة في أوقات حددها الشرع فيكون عدم الصلاة في هذه الأوقات هو العبادة، وهناك عبادات يستطيع المسلم أن يظل متلبسا بها دائما كالذكر والحفاظ على الوضوء □

الإنسان مهما حاول أن يخرج نفسه من دائرة العبودية الشرعية، فإنه لا يستطيع أن يخرجها من دائرة العبودية القدرية، فهو يمرض ويفتقر ويموت في المكان والزمان الذي قدره الله له

وهناك عبادة مطلقة دائما وأبدا وهي (العدل) حيث إنه واجب مع القريب والغريب، المسلم والكافر، البر والفاجر، بل إنه واجب حتى مع الظالم نفسه، حتى قيل: (العدل واجب في كل وقت مع كل أحد، والظلم حرام في كل وقت مع كل أحد)، بحيث أن العدل لا يجوز أن يتخلف عن حياة البشر لحظة واحدة، حتى غير البشر، فالله عز وجل يقتض للبهائم من بعضها يوم القيامة قبل أن يصبوا ترابا □

ومما ينبغي تصحيحه كذلك في مفهوم العبودية، هو أن الإنسان مهما حاول أن يخرج نفسه من دائرة العبودية الشرعية، فإنه لا يستطيع أن يخرجها من دائرة العبودية القدرية، فهو يمرض ويفتقر ويموت في المكان والزمان الذي قدره الله له، بما يعني أنه عبد رغم انه، وقد قال تعالى متحديا: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ" لذلك ندعوه للحرص على أن يكون عبدا باختياره فيؤجر ويثاب على أفعاله كما يؤجر ويثاب على ما قُدّر له إذا كان صابرا شاكرا □

وفي النهاية ألفتُ إلى أن الله عز وجل لم يتركنا وحدنا داخل معتزك العبودية الشاق جدا، بل علمنا أن نقول في فاتحة الكتاب: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" كما علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نستعين به سبحانه فنقول بعد كل صلاة (عبادة) "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" □